النجدان: الخير والشرّ

موجز في تفسير سورة البلد

إعداد: سليمان بيضون

*** السورة التسعون في ترتيب سوَر المُصحف الشريف، نزلت بعد سورة «ق».**
*** سُمّيت بـ«البلد» لابتدائها بعد البسملة بقوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾.**
*** آياتها عشرون، وهي مكيّة، وفي الحديث النبويّ الشريف أنّ مَن قرأها «أعطاه الله الأمن من غضبه يوم القيامة».**
*** ما يلي موجز في التعريف بهذه السورة المباركة اخترناه من تفاسير: (نور الثّقلين)، و(الميزان)، و(الأمثل).**

أجمع المفسّرون أنّ المراد بـ«البلد» «مكّة»، فالسورة مكّية، وأهمّية هذه المدينة المقدّسة لا تبلغها مدينة، لأنّ فيها أوّل مركز للتوحيد ولعبادة الله سبحانه، هو بيته الحرام الذي كان مطاف الأنبياء العظام، ولذلك أقسم سبحانه بها، كما وتشير السورة إلى عامل آخر أضفى على هذه المدينة شرفاً وكرامة بقوله: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، فقد استحقّت أن يُقسم الله تبارك وتعالى بها لوجود النبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم فيها.

محتوى السورة

«**تفسير الميزان**»: تذكر السورة أنّ خِلقة الإنسان مبنيّة على التعب والمشقّة، فلا تجد شأناً من شؤون الحياة إلّا مقروناً بمرارة الكدّ والتعب من حين يلِج في جثمانه الروح إلى أن يموت، فلا راحة له عارية من التعب والمشقّة، ولا سعادة له خالصة من الشقاء والمشأمة إلّا في الدار الآخرة عند الله. فليتحمّلْ ثقل التكاليف الإلهية بالصبر على الطاعة وعن المعصية، وليَجِدَّ في نشر الرحمة على المُبتلين بنوائب الدهر، كاليُتم، والفقر، والمرض، وأضرابها حتّى يكون من أصحاب المَيمنة، وإلّا فآخرته كأولاه، وهو من ﴿..أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾.

«**تفسير الأمثل**»: تحمل السورة المباركة - على قِصَرها - حقائق كبرى، أبرزها:

١ - في بداية السورة، بعد قَسَمٍ ذي محتوى عميق، تقرّر الآية أنّ حياة الإنسان في هذه الدنيا مقرونة بمشاكل ومتاعب، وبذلك تُعِدّ الإنسان من جهة ليصارع العقبات، ومن جهة أخرى تُبعده عن طلب الراحة المطلقة في هذا العالم، فالراحة المطلقة والنعيم المطلق في الحياة الآخرة، لا غيرها.

٢ - في مقطع آخر من السورة، إشارة إلى أهمّ النعم الإلهية، ثمّ ذكر جحود الإنسان بهذه النعم.

٣ - في آخر السورة تقسيم الناس إلى «**أصحاب الميمنة**» و«**أصحاب المشأمة**»، ثمّ يأتي ذكر جانب من أعمال المجموعة الأولى وصفاتها وما ينتظرها من جزاء، ثمّ المجموعة الثانية وما ستواجهه من مصير.

عبارات السورة قاطعة قارعة، والجمل قصيرة ذات إيقاع قويّ، والألفاظ واضحة مؤثّرة معبّرة، وشكل آياتها تدلّ على أنّها مكّية.

فضيلة السورة

* عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: «**مَن قرأها أعطاه الله الأمنَ من غضبه يوم القيامة**».

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «**من كان قراءته في فريضته ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ كان في الدنيا معروفاً أنّه من الصالحين، وكان في الآخرة معروفاً أنّ له من الله مكاناً، وكان يوم القيامة من رفقاء النبيّين والشهداء والصالحين**».

تفسير آيات منها

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ الآيتان:١-٢.

الإمام الصادق عليه السلام: «**كانت قريشُ تعظّم البلدَ وتستحلّ محمّداً فيه، فقال** [تعالى]: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، **يريد أنّهم استحلّوك فيه، وكذّبوك، وشتموك. وكانوا لا يأخذ الرجل منهم فيه قاتلَ أبيه، ويتقلّدون لحاء شجر الحرم فيأمنون بتقلّدهم إيّاه، فاستحلّوا من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ما لم يستحلّوا من غيره، فعاب الله ذلك عليهم..**».

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ الآية:٦.

الإمام الباقر عليه السلام: «**هو عمرو بن عبد ودّ، حين عرض عليه عليّ بن أبي طالب عليه السلام الإسلامَ يوم الخندق، وقال: (فأين ما أنفقتُ فيكم مالاً لُبداً؟!)، وكان أنفق مالاً في الصدّ عن سبيل الله، فقتله عليٌّ عليه السلام**».

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾ الآيتان:٨-٩.

النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**إنّ الله تعالى يقول: يا ابنَ آدم، إنْ نازعَك لسانُك فيما حرّمتُ عليك فقد أعنتُك عليه بطبقتين فأطبِقْ، وإنْ نازعك بصرُك إلى بعض ما حرّمتُ عليك فقد أعنتُك عليه بطبقتين فأَطبِقْ..**».

قوله تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ الآية:١٠.

أمير المؤمنين عليه السلام: «**هما الخير والشرّ**».

قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ الآية:١١.

الإمام الصادق عليه السلام: «**من أكرمه اللهُ بولايتنا فقد جاز العقبة، ونحن تلك العقبة التي مَن اقتحمها نجا**».

قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ الآية:١٣.

* جاء أعرابيٌّ إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله فقال: يا رسولَ الله، علّمني عملاً يُدخلني الجنّة.

قال صلّى الله عليه وآله: «**إنْ كنتَ أقصرتَ الخُطبة فقد أعرضتَ المسألة، أعتقِ النَّسمةَ وفُكَّ الرقبة**».

فقال الأعرابي: أوليسا واحداً؟

قال صلّى الله عليه وآله: «**لا، عِتقُ الرقبة أن تتفرّد بعتقها، وفكّ الرقبة أن تُعينَ في ثمنها. والفيءُ على ذي الرَّحِم الظالم، فإنْ لم يكن ذلك فأطعِمِ الجائع، واسقِ الظمآن، وأمرْ بالمعروف وانهَ عن المنكر، فإن لم تُطقْ ذلك فكُفّ لسانك إلّا من خير**».

* الإمام الصادق عليه السلام لأحد مواليه: «**..إنّ اللهَ فكّ رقابكم من النار بولايتنا أهلَ البيت**».

قوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ الآية:١٤.

* النبيّ صلى الله عليه وآله: «**مَن أشبعَ جائعاً في يومٍ مُسغِب أدخله اللهُ يومَ القيامة من بابٍ من أبواب الجنان لا يدخلها إلّا مَن فعل مثل ما فعل**».

* وعنه صلّى الله عليه وآله: «**من موجبات المغفرة إطعامُ المسلم السَّغبان**» [أي الجائع والسَّغب: الجوع مع التعب].

* الإمام الصادق عليه السلام: «**من أطعم مؤمناً حتّى يُشبعه لم يدرِ أحدٌ من خلق الله ما له من الأجر في الآخرة، لا ملَكٌ مقرّب ولا نبيٌّ مرسل، إلّا اللهَ ربّ العالمين..**».

﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾

كمال الدين وتمام النعمة بالولاية

العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي رحمه الله

تتضمّن الآية الثالثة من سورة المائدة التي تبيّن أحكاماً تتعلّق ببعض المحرمات فقرة بالغة الدلالة تفترق في مضمونها عن موضوع الآية، وهي قوله تعالى: ﴿..ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ..﴾.

يقول العلامة الطباطبائي عن القسم الأوّل منها بعد بحث طويل: «..من جميع ما تقدّم يظهر أنّ تمام يأس الكفار إنّما كان يتحقّق عند الاعتبار الصحيح بأن يَنصِبَ اللهُ لهذا الدين من يقوم مقام النبيّ صلى الله عليه وآله في حفظه وتدبير أمره، وإرشاد الأمّة القائمة به، فيتعقّب ذلك يأسُ الذين كفروا من دين المسلمين لمّا شاهدوا خروجَ الدين عن مرحلة القيام بالحامل الشخصي إلى مرحلة القيام بالحامل النوعي، ويكون ذلك إكمالاً للدين بتحويله من صفة الحدوث إلى صفة البقاء، وإتماماً لهذه النعمة..».

فيما يلي تفسيره رحمه الله للقسم الثاني من الآية، وذلك في المجلّد الثاني من تفسيره النوعي «الميزان في تفسير القرآن».

«شعائر»

قوله تعالى: ﴿..ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا..﴾: الإكمال والإتمام متقاربا المعنى. قال الراغب: «كمالُ الشيء حصولُ ما هو الغرضُ منه».

وقال: «تمام الشيء انتهاؤه إلى حدٍّ لا يحتاج إلى شيء خارجٍ عنه، والناقص ما يحتاج إلى شيء خارج عنه». ولكَ أن تحصل على تشخيص معنى اللفظَين من طريق آخر، وهو: أنّ آثار الأشياء التي لها آثار على ضربين:

فضرْبٌ منها ما يترتّب على الشيء عند وجود جميع أجزائه - إن كان له أجزاء - بحيث لو فقد شيئاً من أجزائه أو شرائطه لم يترتّب عليه ذلك الأمر، كالصوم، فإنّه يَفسد إذا أخلّ بالإمساك في بعض النهار، ويسمّى كون الشيء على هذا الوصف بالتمام، قال تعالى: ﴿..ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ..﴾ البقرة:١٨٧.

وضربٌ آخر: الأثر الذي يترتّب على الشيء من غير توقّفٍ على حصول جميع أجزائه، بل أثر المجموع كمجموع آثار الأجزاء، فكلّما وُجد جزءٌ ترتّب عليه من الأثر ما هو بحسبه، ولو وُجد الجميع ترتّب عليه كلّ الأثر المطلوب منه، قال تعالى: ﴿..فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ..﴾ البقرة:١٩٦، وقال: ﴿..وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ..﴾ البقرة:١٨٥، فإنّ هذا العدد يترتّب الأثرُ على بعضه كما يترتّب على كلّه. ويقال: تمّ لفلان أمره وكمُل عقله، ولا يقال: تمّ عقله وكمُل أمره.

النعمة هي الولاية

ويُنتج ما تقدّم أنّ قوله تعالى: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ يُفيد: أنّ المراد بـ«الدّين» هو مجموع المعارف والأحكام المُشرعة، وقد أضيف إلى عددها اليوم شيءٌ، وأنّ «**النعمة**» أيّاً ما كانت أمرٌ معنويّ واحد، كأنّه كان ناقصاً غير ذي أثر فتُمّم وترتّب عليه الأثر المتوقّع منه. والنعمة بناءُ نوع، وهي ما يلائم طبع الشيء من غير امتناعه منه، والأشياء وإن كانت بحسب وقوعها في نظام التدبير متّصلةً مرتبطةً متلائماً بعضُها مع بعض، وأكثرها أو جميعها نِعَمٌ إذا أُضيفت إلى بعضٍ آخر مفروضٍ كما قال تعالى: ﴿..وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا..﴾ إبراهيم:٣٤، وقال: ﴿..وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً..﴾ لقمان:٢٠؛ إلّا أنّه تعالى وصف بعضها بالشرّ والخسّة واللّعب واللّهو وأوصاف أُخَر غيرِ ممدوحة، كما قال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ آل عمران:١٧٨، وقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ..﴾ العنكبوت:٦٤، وقال: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ آل عمران:١٩٦-١٩٧، إلى غير ذلك.

والآيات تدلّ على أنّ هذه الأشياء المعدودة نِعماً إنّما تكون نعمةً إذا وافقت الغرض الإلهيّ من خِلقتها لأجل الإنسان، فإنّها إنّما خُلقت لتكونَ إمداداً إلهياً للإنسان، يتصرّف فيها في سبيل سعادته الحقيقية، وهي القربُ منه سبحانه بالعبودية والخضوع للربوبية، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات:٥٦. فكلّ ما تصرّف فيه الإنسان للسلوك به إلى حضرة القرب من الله وابتغاء مرضاته فهو نعمة، وإن انعكس الأمر عاد نِقمةً في حقّه، فالأشياء في نفسها عُزَّلٌ، وإنّما هي نعمة لاشتمالها على روح العبودية، ودخولها من حيث التصرّف المذكور تحت ولاية الله التي هي تدبير الربوبية لشؤون العبد، ولازمه أنّ النعمة بالحقيقة هي الولاية الإلهية، وأنّ الشيء إنّما يصير نعمةً إذا كان مشتملاً على شيء منها، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ..﴾ البقرة:٢٥٧.

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ محمد:١١.

وقال في حقّ رسوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ النساء:٦٥، إلى غير ذلك.

تكون الأشياء نعمةً إذا اشتملت على روح العبودية، ودخلت من حيث التصرّف تحت ولاية الله التي هي تدبيرُ الربوبية لشؤون العبد

تمام الولاية بنصب وليّ الأمر

فالإسلام -وهو مجموع ما نزل من عند الله سبحانه لِيعبُدَه به عبادُه- «دين»، وهو من جهة اشتماله -من حيث العمل به- على ولاية الله وولاية رسوله وأولياء الأمر بعده «**نعمة**»، ولا تتمّ ولاية الله سبحانه -أي تدبيره بالدين لأمور عباده- إلّا بولاية رسوله، ولا ولايةُ رسوله إلّا بولاية أولي الأمر من بعده، وهي تدبيرُهم لأمور الأمّة الدينية بإذنٍ من الله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ..﴾ النساء:٥٩.

فمحصّل معنى الآية: اليوم -وهو اليوم الذي يئس فيه الذين كفروا من دينكم - أكملتُ لكم مجموعَ المعارف الدينية التي أنزلتُها إليكم بفرض الولاية، وأتممتُ عليكم نعمتي، وهي الولاية التي هي إدارة أمور الدين وتدبيرها تدبيراً إلهياً، فإنّها كانت إلى اليوم ولاية الله ورسوله، وهي إنّما تكفي ما دام الوحي ينزِل، ولا تكفي لما بعد ذلك من زمان انقطاع الوحي، ولا رسولَ بين الناس يحمي دينَ الله ويذبّ عنه، بل من الواجب أن يُنْصَبَ من يقوم بذلك، وهو وليّ الأمر بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، القيّم على أمور الدين والأمّة.

فالولاية مشروعة واحدة، كانت ناقصة غير تامّة، حتّى تمّت بنَصب وليّ الأمر بعد النبيّ. وإذا كمُل الدين في تشريعه، وتمّت نعمة الولاية فقد رضيتُ لكم -من حيث الدين- الإسلام، الذي هو دين التوحيد، الذي لا يُعبَدُ فيه إلّا الله ولا يطاع فيه -والطاعة عبادة- إلّا الله ومَن أمَر بطاعته، من رسولٍ أو وليّ.

فالآية تُنبئ عن أنّ المؤمنين اليومَ في أمْنٍ بعد خوفهم، وأنّ الله رضيَ لهم أن يدينوا بالإسلام الذي هو دين التوحيد، فعليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً بطاعة غير الله أو مَن أمر بطاعته.

وإذا تدبّرتَ قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ النور:٥٥، ثمّ طبّقتَ فِقرات الآية على فِقرات قوله تعالى: ﴿ ..ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ ..﴾، وجدتَ آية سورة المائدة من مصاديق إنجاز الوعد الذي تشتمل عليه آيةُ سورة النور، على أن يكون قوله: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾ مَسوقاً سَوق الغاية كما ربما يُشعر به قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾. وسورة النور قبل المائدة نزولاً كما يدلّ عليه اشتمالها على قصّة الإفك، وآية الحدّ، وآية الحجاب، وغير ذلك.

لا تتمّ ولاية الله سبحانه إلّا بولاية رسوله، ولا ولايةُ رسوله إلّا بولاية أولي الأمر من بعده، وهي تدبيرُهم لأمور الأمّة الدينية بإذنٍ من الله